مقياس: مدخل إلى تاريخ الجزائر. **د.جلامة عبد الوحيد.**

السداسي: الأول.

سنة أولى جذع مشترك علوم إنسانية.

م5: ثورات البربر ضد الاحتلال الروماني في المغرب القديم.

أولا: حرب يوغرطة 111– 105ق.م.

كانت المملكة النوميدية البربرية قد انتقل حكمها من "ماسينيسا" إلى ابنه "مسيبسا" وكان عهده كعهد أبيه متميزا بقاء الولاء المتين لروما –يدعمها في حروبها–؛ فضلا عن الازدهار الحضاري وخاصة الزراعي الذي تواصل حتى وفاته سنة 119 ق.م–حكمه دام 30 سنة–، مخلفا لأبنائه الثلاثة مملكة قوية غنية وآمنة وقد كان "أدربعل"(Adher bol) و "هيمصال" (Hiemsal) أبناء شرعيان للملك أم الابن الثالث "يوغرطة" فكان ابن أخ الملك "مستنبعل"إلا أنه يحمل لقب الأمير إذ كان الملك عمه "مسيبسا" قد تبناه؛ وكانت وصية هذا الأخير قبل وفاته تنص على أن الملك يكون بين هؤلاء الثلاثة، الذين سرعان ما اختلفوا حول من يتولى الملك، لكنهم يتفقون على تقسيم المملكة بينهم –غير مستبعد أن تكون روما سببا في هذا التقسيم– فحاز "يوغرطة" على نوميديا الغربية الممتدة من بجاية إلى واد ملوية أما الأخوين الآخرين فتقاسما أراضي المملكة المتبقية –محتوين بذلك الجهة الغنية والمتحضرة–.

لم تكن هذه القسمة لترضي"يوغرطة" كل الرضا؛ فكان يتحين الفرصة لإعادة توحيد مملكة جده، فكانت له الفرصة بعد سقوط حكومة طبقة الفرسان الرومانية وحلول الطبقة الأرستقراطية مكانها؛ فكان أول عمل له هو قتل أخوه "هيمصال" والسيطرة على مدينته ثم يزحف على مملكة "أدربعل" فيهزم جيشه بالقرب من مدينة "سيرتا" سنة 113ق.م لكن يمنعه التجار الإيطاليون المسلحون من دخولها –لم تغامر روما بالتدخل العسكري في هذه الأثناء؛ فتكتفي ببعث المندوبين لمطالبة "يوغرطة" بوقف الحرب لكنه لا يعبأ بذلك–، فيحاصر "سيرتا" التي تسقط في يده صيف سنة 112 ق.م؛ بعد استسلام "آدربعل" وأعوانه من الإيطاليين الذين قتلهم جميعا.

1–الحرب ضد روما:

أ–المرحلة الأولى 111–109 ق.م:

كان مقتل التجار الإيطاليين سببا كافيا لإعلان روما الحرب ضد "يوغرطة"، فيقرر مجلس الشيوخ توجيه الجيوش إليه؛ فتتحرك بقيادة القنصل "كلبرنيوس بستيا" (Calpurnius Bestia) وأمير مجلس الشيوخ "سكوريوس" –وهما من الطبقة الأرستقراطية–، تمكن الجيش الروماني من دخول نوميديا واحتلال عدد من مدنها؛ لكنه لم يتوغل في الداخل حيث لم يصل إلى أقرب مدينة نوميدية (باجة) من حدود المقاطعة الرومانية، لأنهما سرعان ما قبلا التفاوض مع

"يوغرطة" الذي اشترى ذمتهما كما يقول "سالوسيوس" مقابل شحنات من القمح وفيل وخيول وأغنام وكمية معتبرة من المال.

عندما وصل خبر إيقاف الحرب إلى روما، أحدث ضجة كبيرة طالب على إثرها الحزب الشعبي بإحضار يوغرطة من أجل الشهادة في تهمة الإرتشاء، وعلى إثر ذلك كلف مجلس الشيوخ الذي كان يرأسه "ميوس" البريطور "كاسيوس" بأن يستقدم "يوغرطة" إلى روما، فيحضر ويتنصل من اتهامات أعدائه عن طريق شراء الذمم، بل ويستطيع تكليف عونه "بوميلكار" لقتل الأمير "ماسيفا" بن "غلوسة" –الذي كانت تعده روما لتولي عرش نوميديا– مما آثار السخط في كل روما وجعل مجلس الشيوخ يصدر أمره إليه بمغادرة روما، ومن خلال هذه الزيارة تأكد "يوغرطة" من أن قادة روما ومجلس شيوخها ليس لهم مواقف ثابتة وأن ذممهم معروضة للبيع؛ فقال وهو يغادر العاصمة الرومانية كلمته الخالدة:" ***مدينة للبيع ستتهاوى قريبا لو وجدت من يشتريها***".

تعود الحرب من جديد بقيادة القنصل "بوستميوس ألبنوس" والذي جره "يوغرطة" إلى مفاوضات لا نهاية لها، ثم يعود إلى روما بسبب اتهامه بالخيانة؛ مخلفا أخاه "أوتوس" على القيادة والذي يمنح لقب "نائب قائد"؛ وفي شتاء سنة 109 ق.م يستطيع محاصرة قلعة سوتول –خزينة يوغرطة– لكن هذا الأخير يتمكن من فك الحصار والانتصار عليه بعد شرائه ذمم قادة المائة وقادة الخيالة ويمهلهم 10 أيام من أجل مغادرة نوميديا.

كان وقع الهزيمة قويا في روما؛ فطالبت مجالس الانتخاب فتح تحقيق حول فضائح إفريقية، ولتهدئة السخط الشعبي أصدر قانون فلاحي جديد سنة 109ق.م والذي لم يجن ثماره إلا الرأسماليين والطبقة المتوسطة وبذلك تنتهي المرحلة الأولى من حرب "يوغرطة" بهزيمة روما وبروز الفساد السياسي للقادة الرومان على الملأ.

ب–المرحلة الثانية 109–107 ق.م:

يعين القنصل "ميتيلوس كايكيليوس" (Q.Caecilius Metellus) من الأرستقراطيين الأمناء الموثوق بهم، ويصل إلى نوميديا في ربيع سنة 109 ق.م؛ فيعيد تنظيم الجيش المضطرب ويبدأ في التوغل داخل الأراضي النوميدية ، فيلتقي البربر قرب "موتول" وينتصر عليهم في شهر أوت، لكن سرعان ما تمكن يوغرطة من اختراق جيش ميتيلوس وتشتيته وبذلك يستطيع أن يرفع الحصار عن حصن "زاما" في شهر أكتوبر من نفس السنة، وفي ظل هذه الأثناء حاول "ميتيلوس" اللجوء إلى الخديعة –بسبب قرب انتهاء مدة قنصليته– عن طريق الاتصال "ببوملكار" الذي وعده بالسلامة إذا سلمه قائده يوغرطة حيا أو ميتا، لكن مجلس الشيوخ يبقي عليه قائدا ويلقبه بلقب قنصل مساعد، في هذه الأثناء بدأ يوغرطة في الإعداد للحرب بجدية أكبر؛ فيجند فرقا جديدة ويحصن مراكزه ويستميل إليه العبيد الرومان ويشتري ذمم جنود الحاميات الرومانية.

وفي شهر ديسمبر من سنة 109 ق.م؛ ينجح أهل باجة –أثناء احتفال ديني روماني– بالفتك بالحامية الرومانية؛ لكن سرعان ما يحل بها "ميتيلوس" ويحتلها ويبيحها لجنوده من أجل النهب والتقتيل.

بعد اكتشاف مؤامرة "بوملكار"، لجأ "يوغرطة" إلى حصنه "بتلا" الحاضرة الكبيرة الغنية التي بها خزائنه؛ لكن القائد الروماني يتبعه ويفرض عليه حصارا دام لحوالي 40 يوم، استطاع بعدها دخول المدينة لكن "يوغرطة" يستطيع هو الأخر الفرار والانسحاب من المدينة حاملا معه كنوزه، وبعد سقوط هذا الحصن سقطت مدينة "سيرتا" في شتاء 108 ق.م وبذبك تصبح نوميديا الشرقية والوسطى بيد الرومان.

يتجه "يوغرطة" بعد انسحابه إلى تجنيد قبائل جدالة الجنوبية؛ كما استعان بصهره "بوخوس" ملك موريطانيا وبالتالي تسير الجيوش النوميدية والمورية من جديد إلى استرجاع سيرتا، كان مجلس الشيوخ الروماني في هذه الأثناء قد عين "جايوس ماريوس" من طبقة الفرسان قنصلا جديدا لسنة 107 ق.م وعاد "ميتلوس" إلى روما، وبهذا تنتهي المرحلة الثانية من الحرب بفقدان يوغرطة ثلثي مملكته ودخول الموريطايين في الحرب وبذلك أصبحت الحرب حربا بربرية عامة ضد روما.

ج–المرحلة الثالثة 107–105 ق.م:

بدأ "ماريوس" حملته بقفصة التي أجهدته؛ فآباد من استطاع حمل السلاح بها، ثم يعبر المنطقة كلها ويصل إلى ناحية وهران ويحتل في طريقه مدنا كثيرة، فيسرع "بوخوس" ويتصل بروما التي أفدت "كورنيليوس سولا"؛وفي أثناء ذلك يصل "ماريوس" في ربيع سنة 106 ق.م إلى نهر الملوية ويفتح موضع كنوز يوغرطة "تل توريت"؛ فيطلب يوغرطة من صهره بوخوس العون فاشترط عليه مقابل ذلك ثلث مملكة نوميديا، فتزحف الجيوش المشتركة على مسكرات "ماريوس" لكنه يستطيع الانسحاب وبفضل هذا التحالف يستطيع يوغرطة استرجاع سيرتا؛ لكن سرعان ما استرجعها "ماريوس" في شهر أكتوبر من سنة 106 ق.م بعد معركة أشرف فيها على الهلاك لولا تخطيط "سولا" الموفقة.

وفي سنة 105 ق.م؛ تضعف حال يوغرطة فقد فقد القسم الكبير من جنوده وأمواله وبقى معتمدا على صهره "بوخوس" وأصبح مستشاري هذا الأخير يعملون لصالح روما بعدما اشترت ذممهم وخاصة أثناء المفاوضات التي أجراها الملك الموريطاني مع "سولا" والتي نجح فيها هذا الأخير من التفرقة بين بربر الغرب والشرق، وينتهي الأمر بغدر "بوخوس" بصهره مقابل أطماع وعد بها، فيستدرجه إلى الفخ ويسلمه إلى عدوه في صيف سنة 105 ق.م وبهذا يدخل "ماريوس" محتفلا روما في أوائل سنة 104 ق.م، وكانت نهاية يوغرطة بطل البربر الشنق بعدما قضى ستة أيام يقاسي آلام الجوع في زنزانات "توليانوم" وبذلك تنتهي حرب يوغرطة وتبقى ذاكرته في أذهان البربر كملك واجه أقوى أمة في زمانه لم تقهره إلا بخيانة عشيرته.

2-نتائج حرب يوغرطة:

خلفت حرب يوغرطة نتائج عميقة على الساحتين النوميدية والرومانية على حد سواء؛ فعلى الساحة النوميدية فقد أصبحت المنطقة مقسمة إلى مملكة غربية (مملكة بوخوس) الذي منحته روما الثلث الغربي لنوميديا عربونا على الخيانة وقسم شرقي من نصيب الملك "غودة" أخ يوغرطة وبينهما مملكة صغيرة سماها سيسرون "المستانزوسوس" (ممالك ضعيفة تابعة بالولاء لروما التي زادت من نفوذها في بلاد المغرب).

كما أعطى انتصار "ماريوس" الأسبقية للحزب الشعبي في تنفيذ برنامجه السياسي الرامي إلى منح أراضي زراعية لقدماء المحاربين وهو المشروع الكولونيالي العسكري المبرمج على مستويات واسعة وهو السبب الرئيسي الذي حرك عجلة التوسع الروماني في بلاد المغرب على حساب الأراضي النوميدية.

أما في روما؛ فقد كان من أثرها فقدان السيناتو طيبته وسمعته خصوصا بعد اتضاح ارتشاء أعضائه وفسادهم، وأثبتت الأحداث إمكانية تشكيل العامة والفرسان جبهة جديدة قوية في وجه أعضاء السناتو الأرستقرطي وأن يسيطروا على السياسة الخارجية للجمهورية، وقد استفادت طبقة الفرسان من الحرب فاستأنفت أعمالها التجارية بأمان في شمال إفريقيا أما أهم نتيجة لهذه الحرب تمكن روما من بسط سيطرتها ونفوذها وسيادتها على المنطقة النوميدية وإدخال المنطقة الموريطانية تحت وصايتها إلى حين التوسع الفعلي على حساب أراضيها.

ثانيا:ثورات البربر في العهد الإمبراطوري الأعلى

27ق.م-192م.

كانت الإمبراطورية الرومانية في عهدها الأعلى في أوج قوتها ونهاية توسعها؛ فقد ضمت بلاد المغرب بأسرها إلى أقاليمها وأنهت إلى حد كبير سياسة التهدئة الحضارية بها؛ لكن مع هذا لم تسلم من الثورات المتعاقبة، فطبيعة البربري القبلية والبدوية عصية عن طاعة الأجنبي؛ فما كانت آثار هذه الثورات؟ وما هي خصوصياتها التي طبعتها؟.

1- ثورة تاكفارناس "Tacfarinas":

كان تاكفاريناس جنديا في الجيش الروماني؛ فهرب منه وشكل جماعة من الثوار-وحسب الرواية اللاتينية التي تقول أنه شكل جماعة من الثوار الذين عاشوا عن طريق السرقة والنهب- لكن سرعان ما تتحول هذه الحركة الصغيرة إلى ثورة عارمة سنة 17م بعد أن انضمت إليه قبائل بربر "الموزوالامس" في ناحية الأوراس الجبلية؛ حيث هاجمت الجنود الرومان المتواجدين بنواحيها، ثم تتوسع ناحية الأراضي السيرتية ونواحي الحضنة ثم تبدأ هذه الحركة في مرحلتها الأخيرة من الانتشار العام في كامل بلاد البربر خصوصا بعد انضمام الثائر الموريطاني "مازيبو" "Mazippo" ومعه فرسانه وقبائل

القرامنت "Garamantes" لنواحي فزان، فكانت الثورة قد تحولت إلى تحالف بربري مغربي كبير هادفة للتخلص من الهيمنة والتسلط الروماني المتزايد.

تتحرك القوات الرومانية بقيادة "البروقنصل كاملوس" "Camilus"؛ هذا الذي استطاع هزم الثوار وتشتيتهم، فيضطر "تاكفاريناس" إلى اللجوء ناحية القبائل الصحراوية أي استطاع أن ينظم جيش مماثل في نظامه للجيش الروماني مع تدريب جنوده على الطاعة التي كانت تنقصهم –كان هذا بعد سنة واحدة من لجوءه إلى الجنوب–ويعد تنظيم جيشه توجه به إلى ناحية المعاقل الرومانية أي تمكن من هزيمة بعض الفرق العسكرية الرومانية وتخريب بعض النواحي المحصنة ثم قصد وحاصر مدينة "ثالا" "Thala" .

وفي هذا الوقت يتحرك إليه القنصل الجديد "أبرونيوس" "Apronius"؛ فيهزمه في عدة مواقع ويضطر "تاكفاريناس" إلى اللجوء إلى الصحراء من جديد، لكن في هذه المرة يعرض "تاكفاريناس" في محاولة سياسية ذكية على الإمبراطور "تبرنيوس" "Tpronius"–الذي حكم ما بين 14–37م– السلم مقابل أن يمنحه ورجاله أرضا مغربية يسكنها؛ فكان رده أن عين بروقنصلا جديدا لإفريقيا وأمده بالجيوش من أجل سحق الثورة سنة 21 م، فيستطيع هذا الأخير بالاعتماد على المراكز المحصنة المنتشرة في المناطق الرومانية الداخلية وخاصة الحدودية من هزم الثائر من جديد وإجباره على دخول الصحراء.

وفي هذا الوقت ضنت روما أنها قصت على الثورة؛ لكن سرعان ما كر "تاكفاريناس" على الجيش الروماني مغتنما بذلك موت الملك يوبا الثاني حيث هدف إلى تحريك القبائل الغربية، وبهذه الحركة يستطيع جمع البربر والزحف بهم للقاء البروقنصل الجديد "دولابيلا" "Dulabella" الذي قام بحركة مضادة تكمن في قتل شيوخ قبائل الموزولامس والجيتول الجنوبية لمنعها من اللحاق بالثائر؛ كما قام هذا البروقنصل بطلب الدعم من الملك البربري الجديد "بطليموس" بن يوبا الثاني وأيضا قام بتحصين الخطوط الجنوبية –بوابات الصحراء– بمراكز عسكرية لمنع الثائر من اللجوء إليها وإحكام الحصار عليه.

وبسبب هذا الإجراء حوصر "تاكفاريناس" وفقد الدعم القبلي الجنوبي؛ فيتجه بجنوده إلى الغرب أي النواحي الموريطانية لكن يدرك من طرف البروقنصل في ناحية "أومال"، فيغير على جيشه ليلا فيقتل "تاكفاريناس"مع بقية رجاله وبذلك تنتهي ثورته سنة 24م.

وكان من أهم نتائج الثورة أن حاز الملك "بطليموس" البربري المترومن جراء خدمته على الهدايا والتحيات من السيناتو الروماني كملك حليف وصديق لروما؛ لكن هذا لم يمنع من اغتياله سنة 40م؛ فقد استدعاه الإمبراطور "كاليقولا" "Caligula" –الذي حكم مابين 37–41م– ويقتله لغير سبب ظاهر، على أن الرواية اللاتينية تذكر قضية اجتلابه

أنظار الناس حين دخل بلباسه الأرجواني –والحقيقة أن السبب كان سياسيا وإستراتيجيا بالدرجة الأولى– وفي هذا الشأن يذهب المؤرخ "غزال" حيث علل سبب القتل بما يلي:

1–أن روما رأت أنه حان الوقت للتحول من نظام الحماية إلى الضم المباشر للبلاد الموريطانية وكان ذلك يتوافق وأسس المعتقد السياسي للعهد الإمبراطوري الذي كانت فيه الديانة التوسعية إحدى ركائزه القوية.

2–أن روما عملت على التوسع في غاليا وخاصة في بريطانيا؛ فكان إتمام التوسع في موريطانيا ضروريا لحماية ظهرها، إذ كانت مناطق موريطانيا في تلك الفترة مناطق نفوذ واسعة لقراصنة البحر والمغامرين.

3–وجود مناطق في موريطانيا –خاصة المدن– تتشوق للتحول إلى أقاليم رومانية لما في ذلك من امتيازات ولما بلغته التهدئة الحضارية للملكين البربريين من نتائج حسنة.

4–عدم قدرة ملوك موريطانيا –يوبا وإبنه– من منع توغل الثوار البربر في الأقاليم الرومانية المغربية وهذا الواقع شكل تهديدا متكررا لأمن روما.

كما كان من نتائج هذه الثورة على مستوى السياسة الرومانية ببلاد المغرب فضلا على ما ذكر ما يلي:

1–قيام الأباطرة الفلافيين؛ بإنشاء تحصينات على طول الحدود الجنوبية للأقاليم المغربية، كما قام الأنطونيون في مثل ذلك بإنشاء مقر عسكري في حدود الليمس جهة "لومبيز"كمقر دائم للجيش الروماني الإفريقي؛ الذي نزلت به على الدوام الفرقة الأوغسطية الثالثة.

2–البداية في تطبيق سياسة فرض الاستقرار على القبائل البدوية الرعوية والنصف رعوية مع العمل على حصرها في مناطق أو محميات محددة الحدود؛ فبدأت بذلك تظهر حركة تحضر مدني جراء استقرار هذه القبائل مع تخلصها تدريجيا من نظامها القبلي لصالح التنظيم الحضري.

2–ثورة أيدمون وسلابوس:

كان من نتائج جريمة قتل الملك البربري "بطليموس"؛ أن تسببت في ظهور سخط عارم في بلاد المغرب وقد اغتنم هذا الحراك العبد المحرر "أيدمون" "Aedemon"، فرفع لواء الثورة ودعمه فيها كل من القبائل المورية والجيتولية وقد تطلب القضاء عليها توجيه العديد من الحملات العسكرية ولم يتم ذلك إلا في عهد الإمبراطور "كلوديوس" – 54/44م–.

لكن مع هذا سيجدد الثوار نشاطهم ليعودون بقوة سنة 41 م للقتال؛ فيلاحقهم "البريتور باولنيوس" إلى أعماق المغرب عابرا سلاسل جبال الاطلس الثلجية واصلا في حملته إلى نهر "قير"؛ لتنتهي بعدها هذه الثورة على يد القائد الروماني "هاسديوس قيتا" "Hasidius Geta" بعد دفعه لاخر المنضمين لثورة "أيدمون" وهو أحد الملوك الموريطانيين المدعو "سلابوس" "Salabus"؛ إذ دفعهم إلى الصحراء وبذلك تحولت موريطانيا إلى إقليم روماني تام التهدئة حوالي 42م بعدما تم القضاء على ثوراتها –فتكسب بذلك روما هدوء نسبي إلى حين-.

3-ثورة كييتوس زمن هادريانوس:

شهدت بلاد المغرب هدوء نسبي إلى غاية بداية عهد الإمبراطور "هادريانوس"-138/117م-؛ حيث تجددت الثورات إبتداءا من سنة 117م، فقد ظهر البربري المترومن "لوسيوس كييتوس"-كان قائد رومانيا في الحروب المشرقية حتى أنه عين حاكم لفلسطين- وبعد رجوعه إلى بلاد المغرب حرك ثورة ضد روما؛ فتولى حربه البروقنصل الإفريقي "ماركيوس توربو" ويستطيع قتله لكنه لم يقدر على إخماد ثورته إلا بعناء كبير.

أما في سنة 122م؛ فاندلعت ثورة كبيرة ببلاد موريطانيا؛ تجبر الإمبراطور على النزول بنفسه لإخمادها وفي أثنائها قام باستحداث تنظيمات وإنشاءات جديدة حتى لقب بعده بلقب "مجدد إفريقيا".

4-ثورة الجيتول زمن أنطونيوس:

اندلعت هذه الثورة في البلاد الموريطانية بعد وصول "أنطونيوس" -161/138م- للإمبراطورية، ويبدوا أن قبائل الجيتول قد شاركت فيها؛ وامتازت هذه الثورة بالخطورة إلى درجة أن الإمبراطور اضطر للنزول بنفسه من اجل التصدي لها، فهزم الثوار الذين تراجعوا إلى ناحية الجنوب أي إلى داخل الأراضي الخارجة عن سيطرة روما، وقد نتج عن هذه الثورة توسيع خط الليمس إلى جنوب حدود الأوراس في البلاد النوميدية.

5-ثورة المازيك والباكات البربرية (مازيغ-برغواطة):

اندلعت الثورة في عهد الإمبراطور "ماركوس أوريليوس" -180/161م- في المناطق المورطانية؛ فقد ثارت قبائل منطقة الريف التي تسميها المصادر اللاتينية بالمازيك والباكات؛ وقد توسعت هجمات هذه القبائل الأطلسية حتى دخلت بلاد اسبانيا واستحوذت على بعض مناطقها؛ وعلى كل حال بقيت روما في حالة دفاع متواصل في هذه الفترة حتى قال المؤرخ "كابيتولين" "...أنها كانت بعيدة عن غزو البربر الداخليين، سعيدة بالمحافظة على حدودها..."مما يظهر حجم هذه الثورة.

وتتواصل الثورات في عهد الأباطرة المتتابعين –سيتثنى من ذلك عهد الأباطرة الأفارقة للأسرة السيفيرية؛ فقد تولى "سبتموس سيفيروس" البربري الإفريقي –211/193م– الإمبراطورية، فعرفت بلاد المغرب زمن حكمه ازدهارا حضاريا وعمرانيا وسلاما متواصلا، حتى قيل أنه رفع من طرف البربر إلى مصاف الآلهة.

6–ثورة الكنكجنتيين زمن الثلاثين متسلطا:

تتجدد الثورات بعد عهد السيفيريين إلى فترة الثلاثين متسلطا –270/253م–؛ حيث يغتنم البربر الحالة المضطربة للإمبراطورية؛ فيقومون بإحدى أكبر ثوراتهم المتأخرة الواسعة الانتشار والتي يصفها "أورليوس فيكتور" بقوله: "...كان الاضطراب العارم للبرابرة كالعاصفة التي تكسر كل شيء ...".

عرفت هذه الثورة بثورة "الكنكجنتيين" وهي تحالف لخمس قبائل كبرى بداية من سنة 265م؛ انتشرت هذه الثورة في نوميديا الغربية وموريطانيا الشرقية، تزعمها "أرديون" البربري وزادت انتشارا سنة 270م؛ لتصل إلى أبواب قرطاجة، تولى إخمادها القائد الروماني "بروبوس" الذي استطاع قتل "أرديون" في نزال منفرد بنواحي الكاف حاليا.

ثالثا:ثورات البربر في العهد الإمبراطوري الأدنى

268–395م.

تواصلت الثورات في العهد الإمبراطوري الأدنى؛ وزادت حالها سوءا بعد نزعة اضطهاد المسيحية في بلاد المغرب؛ مما زاد من تأجيج مشاعر العداوة ضد روما، خاصة وان المغرب اصطبغ بالصبغة الدوناتية من المسيحية المتصارعة مع الكنيسة المسيحية.

1–ثورة فرموس 372–375م:

في هذه الأحوال يتوفى أحد كبار شيوخ قبائل "الكنكجنتيين"؛ مخلفا ستة أولاد كان أكبرهم "فرموي" الذي قام بقتل أصغر إخوته المقرب من الحاكم الروماني في الناحية –لخوفه من أن يهضم حقه– مما عرضه لغضب الحاكم ورغم محاولته تبرير فعله إلا أنه يضطر في النهاية للثورة ضد الرومان سنة 372م.

رفع "فرموس"لواء الثورة في جبال جرجرة؛ فنصرته القبائل الموريطانية وأعانته فرقة الدوناتية والكثير من المضطهدين، بل قيل أن فرقة كاملة من الجيش الروماني قد لحقت به؛ فأصبح حوله حوالي 20 ألف جندي؛ فتحرك بهم وفي طريقه فتحت بعض المدن أبوابها دون قتال وتمتنع "قيصرية" فيفتحها ويخربها في أخر المطاف؛ ثم يستطيع هزيمة الحاكم الروماني "رومانوس" وتنتشر الثورة في نوميديا وينتهي به الأمر بتتويجه من طرف البربر ملكا عليهم.

تصل الأخبار إلى الإمبراطور المشرقي؛ فيوجه جيشا إلى الغرب تحت قيادة "تيود سيوس" فينزل سطيف ثم يتوغل القائد الروماني في البلاد فيستطيع هزيمة إخوة "فرموس" (مازيسال وديوس)، وبعد هذه المواجه يحدث السلم بين المتنازعين بسبب توسط احد الأباء المسيحيين، لكن سرعان ما تتجدد الحرب؛ إذ تقول الرواية اللاتينية أن القائد الروماني قد خشي غدر البربر؛ فزحف بجيشه على بلاد جرجرة ويهزم قبائلها ويقتل قائدها "مازوكا"، وفي هذه الأثناء ينحاز الملك البربري إلى قبائل "الإزافلانسيس" وزعيمها "إغماسين" ومعه حوالي 20 ألف جندي فيواجه الجيش الروماني ويهزمه حتى أجبر قائده على الفرار تحت جنح الظلام.

يجدد القائد الروماني قواه في سطيف وفي سنه 375م؛ يتوجه بقوة جسيمة نحو هذه القبائل فيهزمها ثم يستطيع إقناع قائدها "إغماسين" بالدخول في حلف روما ويقوم هذا بأسر "فرموس" والغدر به وتسليمه إلى أعدائه –ولتجنب المحكمة يقوم فرموس بشنق نفسه في سجنه كما تقول الرواية اللاتينية.

2–ثورة جلدون 397–398م:

قسمت الإمبراطورية بعد "تيود سيوس الأول الكبير"–395/378م–؛ على إبنيه فمنح واحد الشرق والأخر الغرب؛ وفي هذا الوقت كان "جلدون" أحد قادة الجيش الروماني في إفريقيا قم أصبح سنة 385م "قومس إفريقيا" ثم منحه قانون "تيود سيوس" سنة 393م منصب "القومس" و"الماجستر"؛ إلى أن أصبح القائد العسكري للقوات الرومانية الإفريقية مقيما في قرطاجة مع البروقنصل .

كانت أولى خطوات بداية تمرد جلدون أنه قام سنة 395م؛ بمنع إمدادات القمح عن روما، فكان ذلك بمثابة إعلان الحرب عليها وبعد هذا الحادث يقوم "ستيليكون" "Stilicon" وزير الإمبراطور الجديد"هونوريوس""Honorius" – 423/796م– باعلانه"Hostis Pubicus" ولعل جلدون قام بعد هذا الإعلان بإعلان ولائه لإمبراطور الشرق "أركديوس".

ثم يقوم "جلدون" بقتله ابني أخيه "مازيسال" الذي خشي غدرهما؛ وتغتنم روما الحادث فتعين "مازيسال" سنة398م قائد للقوة المكلفة بحرب جلدون؛ فينزل بخمسة ألاف روماني ويتوجه لمقابلة أخيه الذي كان على رأس جيش قدر بحوالي 60ألف من الرومان والبربر؛ كانت المعركة خاسرة بالنسبة للرومان لولا أن الفيلق الروماني لإفريقية غير صفه قبيل المعركة وأثناء الإلتحام مما تسبب من خوف البربر من الخديعة والغدر، فانكشفوا عن قائدهم جلدون فكانت هزيمته في معركة "أردليو".

بعد هذه الهزيمة يفر "جلدون" إلى الساحل محاولا اللحاق بالقسطنطينية؛ لكن تدفعه الرياح إلى ساحل إفريقية حيث يقع أسيرا عند أخيه؛ لكنه يسلم من المحكمة بخنق نفسه كما تقول الرواية اللاتينية وينتهي بذلك عهد القائد جلدون الذي دام 12 سنة ومع هذا لم تكن نهاية أخيه بأحسن حال؛ إذ كان نصيبه الإغراق في الماء أمام أعين الوزير المذكور وبأمره؟؟؟؟؟.

كان من نتائج نهاية عهد جلدون وحركته ما يلي:

1-تحول بلاد المغرب من جديد إلى سلطان الإمبراطورية المغربية.

2-الاستحواد على التركة الهائلة التي خلفها جلدون.

3-ملاحقة من أعانه في حركته؛ فنال الدوناتية حملة كبرى من الاضطهاد ساهم فيها الكاثوليك؛ حيث أنه سلب وطرد من البلاد كل من ظن فيه الموالاة للثور ودامت الحملة عشر سنوات.

4-وضع المرسوم الإمبراطوري لسنة 399م؛ الذي يمنع منعا باتا "ديانة تمجيد الأبطال" وإعلانا لنهاية المذاهب الوثنية ببلاد المغرب.

أما الحقيقة من وراء ثورة جلدون:

اختلف المؤرخون في توصيف ثور جلدون وصاحبها؛ فهل كانت استمرارا للاتجاه اليوغرطاني البربري الثائر نحو التحرر من السيادة الرومانية كما يدعيه "عمروش" و"كوترا"؟ أم أن هذه الثورة لم تكن ذات صلة بأصول جلدون البربرية كما يراه "لوبولي"، أو أن صاحبها لم يكن لا ثوريا بربريا ولا حاكما استقلاليا رومانيا وإنما كان يبحث عن نفوذه وتكثير ثورته مغتنما ضعف الّإمبراطورية كما يراه "موديران" أم أنها نزعة استقلالية لأحد حكام وقادة الرومان المتسلطين كما يراها المؤرخ "رومانلي"؟.

حجج القول الأول: أحتج أصحاب القول الأول بعدة حجج منها:

1-شهادة شاعر البلاط الروماني وملازم الوزير "ستيلكون" الشاعر "كلوديان" في نص الآدبي " De Bello Gildonico"؛ حيث وصف فيه الثائر بالمتسلط والموري وقارنه بيوغرطة.

2-ذكر هذا الأديب فيمن ثار معه وشكل عظم جيشه من القبائل البربرية "النازاموس" و"القرامونت" و"الأتولولوس" وهي قبائل بعيدة عن النفوذ الروماني.

3-نصرة جلدون للتيار الدوناتي المسيحي في المنطقة النوميدية وكان زعيمه "أوبتات" أحد مقربيه؛ علما أن الدوناتية عند بعض المؤرخين حركة مسيحية بربرية معادية لروما.

4-قيامه بقطع تمويل روما بالقمح وتحويل ذلك فيما يبدوا إلى المغرب وتوزيعه على البربر.

أما حجج القول الثاني: واستدل أنصاره بـ:

1-الرواية التاريخية حول الأحداث للمؤرخ "أوروزيوس" التي ألفها بعد 20 سنة بعد الثورة، وأوردها فيها روايات ممن عاصرها؛ على الرغم من نزعتها الكاثوليكية الإفريقية.

2-ربط جلدون إفريقيا بالإمبراطورية الشرقية وذلك لم يكن منه إلا بتمويلها نحو الاستقلال التام عن روما.

3-أن البربر لم يكونوا يرون في جلدون صاحب مبادئ بربرية؛ بدليل توليهم عنه في أول صدمة مباشرة بعد تحول الفيلق الروماني في جيشه إلى جيش العدو.

4-الطبيعة المترومنة الغالبة عليه وعلى أسرته من إخوته وحتى ربما من ابيه.

5-كل حركاته كانت هادفة إلى تقوية سلطته وبسط نفوذه الشخصي؛ فقد حقق نقلة في الجيش الروماني فأصبح قائده في إفريقيا، كما اتبع استراتيجية أسرية ذكية بزواجه بإحدى النبيلات الرومانيات ومصاهرته للأسرة الإمبراطورية؛ وتحقيق ثروة هائلة مغتنما قيادته ونبالته وحسن تعامله مع القوة الدوناتية في المغرب مع تحقيق اتصالات مع شيوخ قبائل المغرب وجعلهم تبعا له في حروبه على التقليد الروماني؛ فهو في النهاية لم يكن قائدا وطنيا له مشروع دولة إفريقية بربرية ولا حتى تابعة لروما بل كان "وصوليا ممتازا" كما يقول المؤرخ "موديران".